

وهزم الأحزاب وحده

الحمد لله، الحمد لله حمداً يتوالى، ونعمة الحمد منه وله سبحانه وتعالى، يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، سجدت له الأكوان إذعانا وإجلالاً، أسبغ علينا نعمة منةً منه وإفضالاً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عليها نحيا ونموت، وبها نرجو بها النجاة يوم الحساب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، هداًنا الله به من الضلالة، وأنقذنا به من العبودية إلا لله، أكرم الخلق على ربه، وأزكاهم نفساً وخلقاً وجمالاً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم يسعى نور المؤمنين بين أيديهم ويتلالا.

أما بعد:

فإن أعظم الوصايا وأفضل الهدايا، التذكير بالتقوى، فإن التقوى هي العدة في الملمات، وهي النجاة في المذلمات، وهي الفوز الحقيقي عند رب الأرض والسموات (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ).

عباد الله: في القرآن الكريم حدث في غاية العجب، وواقعة يذهب من هولها العقل والأرب، وموقف في غاية الأدب، حادثة كأنها تحكي واقعتنا، وتصيف عصرنا.

إنها غزوة الأحزاب التي وقعت أحداثها في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة النبوية.

في حادثة ذكرها القرآن، وأبدع في وصف أحداثها، فقال تعالى: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ١١).

وكان من نبا هذه الغزوة أن نقرأ من اليهود من الذين حاربوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش في مكة، فدعاهم إلى حرب رسول الله، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: (الْم تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْثُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا) فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشيطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله واتعدوا له.

ثم خرج أولئك نفر من يهود حتى جاءوا عطفان وهم من قبائل الجزيرة العربية المشهورة، فدعوهم إلى حرب رسول الله، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه.

فخرّجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرّجت عطفان وقائدها عيينة بن حصن الفزاري وغيرهم.

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أجمعوا لهم من الأمر جمع الناس وأخبرهم بالأمر واستشارهم، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق فأعجب ذلك المسلمين، فضرب رسول الله الخندق على المدينة فعمل فيه وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا، وأبطأ عن العمل رجال من المنافقين، يعتذرون بالضعف، ويتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذن، وهؤلاء يصدق فيهم قوله تعالى: (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وأما المؤمنون فإذا نابت أحدهم نائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتساباً للأجر؛ فأنزل الله في أولئك المؤمنين: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ).

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت قريباً من المدينة، في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت عطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بجانب أحد، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب عسكره، وجعل الخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الحصون حفاظاً عليهم.

وإمعاناً في المكر خَرَجَ عَدُوُّ اللَّهِ حُيِّيُّ بْنُ أَخْطَبِ الْيَهُودِيِّ - وهو والدُ صَفِيَّةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - حَتَّى أَتَى كَعْبَ بْنَ أَسَدِ الْقُرْظِيِّ مِنْ قَرِيظَةَ مِنَ الْيَهُودِ، وَكَانَ كَعْبٌ هَذَا قَدْ عَاهَدَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ قَوْمِهِ، وَعَاقَدَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمْ يَزَلْ حُيِّيُّ بِكَعْبٍ يُفْتِنُهُ وَيُلْحِقُ عَلَيْهِ بِنَقْضِ عَهْدِهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ لِيَنْضُمَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَعْطَاهُ عَهْدًا وَمِيثَاقًا: لَنْ رَجَعْتُ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانٌ وَلَمْ يَصِيبُوا مُحَمَّدًا أَنْ أَدْخَلَ مَعَكَ فِي حِصْنِكَ حَتَّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ، فَنَقَضَ كَعْبُ ابْنَ أَسَدٍ عَهْدَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، وَبَرَى مِمَّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.

وهنا، وفي هذا الوقت العصيب والحالة الحرجة عَظُمَ الْبَلَاءُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ، وَأَتَاهُمْ عَدُوُّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْهُمْ، حَتَّى ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ ظَنٍّ، وَنَجَمَ النِّفَاقُ وَأَظْهَرَ الْمُنَافِقُونَ مَا كَانُوا يُخْفُونَ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَأَحْدُنَا الْيَوْمَ لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ! وَحَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ، فَأَذِنْ لَنَا أَنْ نَخْرُجَ فَنَرْجِعَ إِلَى دَارِنَا، فَإِنَّهَا خَارِجُ الْمَدِينَةِ.

فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقَامَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ بَضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ، لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَرْبٌ إِلَّا الرَّمْيَ بِالنَّبْلِ وَالْحِصَارَ.

وفي هذه الأثناء وبينما رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنون في هذه الحال، من الهم والكرب الذي وصفه اللهُ بِأَدَقِّ وَصْفٍ وَأَبْلَغِهِ حَيْثُ قَالَ (وَإِذْ رَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)، وَوَصَفَهُ فَقَالَ: (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَلًا شَدِيدًا).

اللهم بارك لنا في القرآن والسنة وانفعنا بما فيهما من الآيات والحكمة أقول ما تسمعون، وأستغفر الله من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه ثم توبوا إليه يغفر لكم، إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله وحده، أنزل الكتاب، وأجرى السحاب، ونصر عبده الأواب، وهزم الأحزاب، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي أوتي الحكمة والسداد والصواب، وعلى آله وصحبه أولي الفضل والسبق في جميع الأبواب.

أما بعد:

وفي خضمّ البلاء، ومن قلب الحصار يجيء نصر الله من فوق سبع سماواته، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً.

وأول بوادر النصر حين جاء نعيم بن مسعود الغطفاني رضي الله عنه إلى النبيّ مسلماً، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمُرني بما شئت، فقال له رسول الله: إن استطعت أن تُخدِلَ عنا الناس فافعل، فأتى نعيم بن مسعود إلى بني قريظة؛ فأشار عليهم أن لا تقاتلوا مع قريشٍ وعطفان حتى تأخذوا منهم رهائن تستوثقون بهم، فصوبوا رأيه، ثم أتى أبا سفيان فأعلمه أن قريظة قد عرّمت على أن تأخذ رهائن منكم تسلمهم إلى محمد، وحثّهم أن يدفعوا إليهم الرهائن، ثم أتى عطفان فقال لهم مثل ذلك، فوقع بين القوم، وأيسر بعضهم من بعض.

فانظر إلى هذا الرجل كيف نفع الله به نفعاً عظيماً وهو حديث عهد بالإسلام، ولكن المؤمن يعمل لله في كلِّ حال بما يستطيع ولو كان وحيداً.

وبعث الله في هذه الغزوة آيةً عظيمةً من آياته، حيث سلط على الكفار ريحاً شديدةً في ليلةٍ شاتيةٍ باردةٍ مظلمة، فجعلت ثقلب القدور وتطرح الخيام، وثقلب عليهم الحجارة، وأظلم الجوّ عليهم، فكان أحدهم لا يعرف راحلته، حتى انقلبوا منهزمين.

يقول حذيفة رضي الله عنه وهو يصف تلك الرياح: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب وأبو سفيان والأحزاب فوقنا، واليهود أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا قط ليلة أشدّ منها ظلمة ولا أشدّ ريحاً، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه، يقول: فسمعت المشركين يقولون: الرحيل الرحيل لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، والريح تضربهم بها، وهذا معنى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنوداً فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً).

وأما رسول الله فأمره في غاية العجب، كان قائماً يُصلي ويدعوا ويستنصر ربه ويقول: (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم) وهذا أعجب ما يكون في التعلق بالله واللجوء إليه في أشق الأحوال وأشدها، وهو في الوقت ذاته درس للمؤمنين في كل زمان ومكان، أن يدركوا أن الأسباب لوحدها لا تُغني شيئاً عن تدبير الله وتوفيقه (وَمَا أَلْنَصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۗ)

وفي هذه الساعة تفرق الأحزاب، وعادت قريش كما عادت غطفان، لم ينالوا خيراً، كما انقلب اليهود بخيانتهم وخيبتهم، وقال النبي: (الآن نغزوهم ولا يغزونا)، وهكذا كان نصر الله وتأييده لأوليائه حتى فتح الله مكة.

أيها المسلمون: تعلمنا هذه الغزوة أن سنة الله جارية قديماً وحديثاً، وأن غربة الدين وضعف المسلمين لا ينبغي بحال أن يقودا إلى الإحباط وخور النفوس، بل يجب أن يكون دافعاً للصبر والبذل والثبات حتى يأذن الله تعالى بالفرج.

تعلمنا غزوة الأحزاب أن الكفار مهما كانوا، ملة واحدة، بعضهم أولياء بعضهم، فاليهود والنصارى والمشركون كلهم أعداء لهذا الدين وإن اختلفوا فيما بينهم إلا أنهم في صف واحد على المسلمين، (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ).

اللهم منزل الكتاب وهازم الأحزاب اهزم الأحزاب جميعا الذين تحزبوا على المسلمين وآذوهم وظلموهم واضطهدوهم.

اللهم عليك بالمعتدين الظالمين من اليهود والنصارى والرافضة والمنافقين.

اللهم انج ضعفة المسلمين في كل مكان واكتب لهم النصر والتمكين يا رب العالمين. واجعل بلدنا آمناً مطمئناً وسائر بلاد المسلمين.